بُنَاة دَوْلَةِ الإسْلام

- ١١ -

ابن عم رسول الله

صلى الله عليه وسلم

الفَضْلُ بنُ العبّاس

رضي الله عنهما

بسم الله الرحمن الرحيم

وَبَلَغَ العبَّاسُ بنُ عَبْدِالمُطَّلِب سِنَّ الشَّبابِ، فَخَطَبَ لَهُ أَخُوهُ الحَمْزَةُ بنُ عَبْدِالمُطَّلِبِ فَتاةً فَاضِلَةً عُرِفَتْ بالجَمالِ والهُدوءِ، هِيَ لُبابَةُ بِنْتُ الحَارِثِ الهِلالِيَّةُ، وَهِيَ أُخْتُ زَوْجِهِ سَلْمَى بِنْتُ عُمَيْسٍ الخَثْعَمِيَّة لأُمِّها، وَلَمْ يَلْبَثِ العَرُوسَان أنْ رُزِقا غُلاماً أَسْمَيَاهُ الفَضْلَ، وَأَصْبَحَا بِهِ يُكَنَّيانِ.

وَبُعِثَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وآمَنَ بِهِ مَنْ آمنَ مِنْ قَوْمِهِ، وَجَحَدَ مَنْ جَحَدَ، وَكَانَتْ أُمُّ الفَضْلِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْها، المَرْأَةَ الثَّانِيَةَ التي أَسْلَمَتْ بَعْدَ خَدِيجَةَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَإِذَا كَانَ زَوْجُها العَبَّاسُ لم يُسْلِمْ إلاّ أَنَّهُ كَانَ صَدِيقَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وإنْ كَانَ عَمَّهُ - إلاّ أنَّ السِّنَّ بَيْنَهُما قَرِيبَةٌ، فَلاَ يَكْبُرُهُ إلاّ بثلاثِ سَنَوَاتٍ، وَالصِّلةُ بَيْنَهُما وَطِيدَةٌ.

وَمَرَّتِ الأَيَّامُ، وَلَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ما لَقِيَ مِنْ قَوْمِهِ، وَٱضْطُرَّ إلى الهِجْرَةِ إِلى المَدِينَةِ، وَكَانَ لأُمِّ

الفَضْلِ غُلامٌ آخَرُ هُوَ «عَبْدُاللَّهِ» إلاّ أَنَّه كَانَ صَغِيراً، لَمْ يَزِدْ عُمْرُهُ على الثَّلاثِ سَنَواتٍ، وَبَقِيَتْ أُمُّ الفَضْلِ عَلَى إيمَانِها، وَكَبُرَ طِفْلُها الثَّاني «عَبْدُ اللَّهِ» فَآمَنَ مَعَهَا، فَكَانَ وإِيَّاهـا مِنَ المُسْتَضْعَفِينَ في مَكَّـةَ الَّـذِينَ لم يَتَمَكَّنُـوا مِنَ الهِجْـرَةِ إِلى المَدِينَةِ.

وَعِنْدَمَا هَاجَرَ رَسُـولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلى المَـدِينَةِ بَقِيَتْ أَعْـدَادٌ مِنْ عَشِيرَتِـهِ الأَقْرَبِينَ، مِنْهُمْ أَعْمَـامُهُ وَأَبْنَاؤُهُمْ، وَأَبْناءُ عَمَّاتِهِ، وَغَيْرُهُمْ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ.

وَكَانَ اللِّقَاءُ الأَوَّلُ في بَدْرٍ بينَ الإيمانِ وَالشِّرْكِ، فَأَيَّدَ اللَّهُ أَنْصارَهُ، وَهزَمَ أَعْدَاءَهُ، فَتَرَكَ الكُفَّارُ سَبْعِينَ جُثَّةً في سَـاحَةِ القِتَالِ، وَمِثْلَهُمْ أَسْرَى بِأَيْدِي المُسْلِمِينَ، كانَ عَدَدٌ مِنْهُمْ مِنْ بَني هَاشِمٍ، مِنْهُمْ: العَبَّاسُ بنُ عَبْدِالمُطَّلِبِ عَمُّ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، وَعَقِيلُ بنُ أبي طَالِبٍ، وَنَـوْفَـلُ بنُ الحَارِثِ ابنا عَمَّيِّ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لم يَكُنِ العَبَّاسُ ولا ابنا أَخَوَيْهِ خُصُـوماً لِـرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَعَ أَنَّهُمْ كَانُوا في عِدَادِ أَعْدَائِهِ، وَلَكِنْ خَـرَجُوا مُكْـرَهِينَ، وَكَـانَ العَبَّـاسُ صَـدِيقـاً لِـرَسُـولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَرِيصاً عَلَيْهِ، وَرَسُولُ اللَّهِ يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ

كُلِّيّاً، وكانَ الوَحِيدُ مَعَهُ مِنْ بَيْنِ أَهْلِهِ يَوْمَ بَيْعَةِ العَقَبَةِ التي تَمَّتْ بينَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والأَنصَارِ.

وَفَدَى العَبَّاسُ نَفْسَهُ وابنَ أَخِيهِ عَقِيلاً، وإِنَّ بَني هَاشِمٍ الذينَ أُسِرُوا في بَدْرٍ قدْ أَسْلَمُوا، وأَمَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنْ يَرْجِعُوا إلى مَكَّة لِيُقِيمُوا ما كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ السِّقَايَةِ والرِّفادَةِ والرِّئاسَةِ وذلِكَ بَعْدَ مَوْتِ أبي لَهَبٍ إذْ كَانَتْ هَذِهِ الأُمُورُ مِنَ آخْتِصَاصِ بَنِي هَاشِمٍ. وَلَمْ يَشْتَرِكْ بَعْدَ ذَلِكَ أَحَدٌ مِنْ بَني هَاشِمٍ في حَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

كانَ العَبَّاسُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، في مَكَّةَ عَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَمْ يُعْلِنْ إسْلاَمَهُ بَعْدُ، وَيُرسِلُ إلَيْهِ أَخْبَارَ قُرَيْشٍ ويُظْهِرُ أَنَّهُ مِنْهُمْ.

وتَوالَتِ المَعَارِكُ بَيْنَ المُسْلِمِينَ وقُرَيْشٍ، ثُمَّ وُقِّعَ صُلْحُ الحُدَيْبِيَةِ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ، وَلَكِنْ لم تَلْبَثْ قُرَيْشٌ أَنْ نَقَضَتْهُ فَسَارَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إلى مَكَّةَ لِيَدْخُلَها فَاتحاً.

وَالْتَقَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في الطَّرِيقِ بَيْنَ المَدِينَةِ وَمَكَّةَ بِعَمِّهِ العَبَّاس وأَهْلِهِ، جَاؤُوا إِلَيْهِ مُهَاجِرِينَ،

مُسْلِمِينَ، طَائِعِينَ، فَسُرَّ بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَتَابَعُوا طَرِيقَهُمْ إلى المَدِينَةِ، وَرَجَعَ مَعَهُ العَبَّاسُ وَٱبْنُهُ الفَضْلُ، وَهُمُ القَادِرُونَ على القِتَالِ.

وَدَخَلَ المُسْلِمُونَ مَكَّةَ فَاتِحِينَ بِقِيَادَةِ رَسُولِهِمْ الكَرِيمُ، وَتَهَاوَتِ الأَصْنَامُ، وٱنْهَارَتْ قَوَاعِدُها، وَزَالَ أَتْباعُها مِنَ البَلَدِ الحَرَامِ. وأَذْعَنَتْ قُرَيْشٌ، وأَسْلَمَتْ عَدَا أَفْرَادٍ قَلائلَ مِنْها لا يَصِلُ عَدَدُهُمْ إلى العَشَرةِ، فَرُّوا مِنَ السَّيْفِ لأَنَّهُمْ قَامُوا بأَعْمالٍ يَسْتَحِقُّونَهُ وَهُمْ يَعْرفونَ ما قَاموا بِهِ، ولَكِنْ لم يَعلَمُوا بَعْدُ عَفْوَ رَسُولِ اللَّهِ الكَرِيمِ.

وَشَعَرَ أَهْلُ مَكَّةَ بِعَهْدٍ جَدِيدٍ، وَمَضَى يَوْمُهُمُ الأَوَّلُ، مِنْهُمْ مَنْ أَتَى البَيْتَ الحَرَامَ وَصَلَّى مَعَ المُسْلِمِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ بَقِيَ في بَيْتِهِ حَيْثُ أُعْطِيَ الأَمَانَ، وَمِنْهُمْ مَنْ كانَ في دَارِ أبي سُفْيَانَ حَيْثُ أُمِّنَ مَنْ فِيها.

وأَظْلَمَ اللَّيْلُ، وَبَاتَ كُلٌّ في دَارِهِ يَحْلَمُ في العَهْدِ الجَدِيدِ الذي سَيَكُونُ لَهُمْ عِزّاً، وَيَكُونُ كُلُّ فَرْدٍ لَبِنَةً مِنْ لَبِناتِهِ الأَسَاسِيَّةِ. وَقَضَى الفَاتِحُونَ لَيْلَتَهُمْ في مُعَسْكَرِهِمْ فَرِحِينَ بما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ نَصْرٍ، وبما مَنَّ عَلَيْهِمْ بإِعْطَائِهِمْ دُخُولَ البَيْتِ الحَرَامِ، وإِسْلامِ أَهْلِهِ، وَهُوَ مَهْوَى أَفْئِدَة العَرَبِ مَعَ وَثَنِيَّتِهِم

يَـوْمَذَاكَ. وَبَـاتَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، لَيْلَتَهُ يُسَبِّحُ بِحَمْدِ رَبِّـهِ حيثُ رأى النَّـاسَ يَـدْخُلُونَ في دِينِ اللَّهِ أَفْواجاً، وأَنَّ قَوْمَهُ الذينَ أَخرجُوهُ منْ بَلَدِهِ قَدْ أَذْعَنُوا لأَمْرِهِ، وَبَاتُوا مِنْ إِخْوَانِهِ وأَصْحَابِهِ.

وبَدَتْ مَكَّةُ هَادِئَةً آمِنَةً لا يُعَكِّرُ صَفْوَهَا ضَجِيجُ أَكَابِرِها السَّابِقِينَ، ولا هَذَيانُ سُكارَاها العَابِثِينَ، كُـلُّ مَنْ فِيها آمِنٌ مُسْتَقِرٌّ، هَادِىءُ النَّفْسِ، قَرِيرُ العَيْنِ.

وَصَدَحَ صَوْتُ بِلالٍ فَوْقَ الكَعْبَةِ: اللَّهُ أَكْبَرُ. اللَّهُ أكبرُ، دُونَ أَنْ يَمْنَعَهُ طاغِيَةٌ، أو يَقِفَ في وَجْهِهِ مُتَكَبِّـرٌ، أو يَحُولَ دُونَهُ زَعيمٌ، بَلْ دُونَ أَنْ يَلْقَى مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ عَذَاباً، فَقَدْ غَدَا صَاحِبَ كَلِمَةٍ. وَأَصْبَحَتْ كَلِمَةُ اللَّهِ هي العُلْيَا، وَكَلِمَةُ الذينَ كَفَرُوا هِيَ السُّفْلَى.

أَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلّا اللَّهُ، أَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلّا اللَّهُ، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ.

وَرَدَّدَتِ المُرْتَفَعاتُ أَصْدَاءَ الأَذَانِ فَدَوَّتْ في الأَوْدِيَةِ... وَصَحَا النَّاسُ مَعَهَا، وَلأَوَّلِ مَرَّةٍ عَلَيْها، فَرَدَّدُوا مَعَهـا، وَقَدِ آرْتَفَعَ ما كَانَ يُرِينُ عَلَى قُلُوبِهِمْ، وآنْكَشَفَتِ الغَشَـاوَةُ التي

كانتْ عَلى أَعْيُنِهِمْ فَعرفُوا الحَقَّ وَرَأَوْهُ، فَهُرِعُوا إلى طُهُورِهِمْ فَتَوَضَّأُوا وآنْطَلَقُوا إلى البَيْتِ الحَرَامِ.

وَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِهِمُ الفَجْرَ، وَقَرَأَ عَلَيْهِمُ القُرْآن، فَكَانَتْ آياتُهُ نَدِيَّةً تَخْرُجُ من فَمِ رَسُولِ اللَّهِ فَتَتَلَقَّفُها آذانُهُمْ، وتَسْتَوْعِبُها قُلُوبُهمْ، فَذَرَفتْ العُيُونُ عَلَى مَا مَضَى، وَبَكَتِ القُلُوبُ على خَوَالي الأَيَّامِ... فَآسْتَقَرَّ الإيمانُ، وإنْ كانَ عِنْدَ قِلَّةٍ منْهُمْ يَحْتَاجُ بِهِم الأَمْرُ إلى مَزيدٍ، ولكنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تَأَلَّفَهُمْ.

وَبُويِعَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْ أَهْلِ مَكَّة جَميعاً، وغَدَوْا كُتْلَةً وَاحِدَةً. وَغَدَا مَهْوَى أفئِدَةِ العَرَبِ تَحْتَ رَايَةِ «لا إلَه إلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ».

وَضَجَّتِ القَبَائِلُ التي لَمْ تَشْرُفْ بالإسْلامِ بَعْدُ، قُرَيْشٌ سَيِّدَةُ العَرَبِ دَانَتْ بالإسْلامِ، والبَيْتُ الحَرَامُ غَدا مُحَرَّماً عَلَيْهِمْ، وَكَيْفَ يَدْخُلُونَهُ وَقَدْ حُطِّمَتِ الأَصْنَامُ، وَزَالَتْ عَنْهُ مَظَاهِرُ الشِّركِ! لا... لا... لا بُدَّ مِنْ جَوْلَةٍ تُعِيدُ الأَمْرَ إلى ما كانَ، وتَنْصُرُ آلِهَتَها، وَتَرْفَعُ أَصْنَامَها.

كَانَتْ أَقْرَبَ القَبَـائِلِ إلى مَكَّـةَ «هَوَازِنُ» و «ثَقيفُ» في الطَّائِفِ، قَرِيبَةً مِنَ الحَرَمِ ، وَهِيَ أَقْوَى شَكِيمَةً وأَكْثَرُ نَفِيراً.

آسْتَعَدَّتْ هَذِهِ القَبَائِلُ، وَجَمَعَتْ جُمُوعَها، وَآلْتَفَّتْ حَوْلَ (مالِكِ بنِ عَوْفٍ النَّصْرِيِّ) سَيِّدِ هَوَازِنَ.

وَعَلِمَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بما يَتُّم فَخَرَجَ مِنْ مَكَّةَ لِمُلاَقَاةِ أَعْدَائِـهِ، وخَرَجَ مَعَـهُ ألفانِ مِنْ أَهْـلِ مَكَّةَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا حَدِيثاً، وَعَشَرَةُ آلافٍ مِمَّنْ سَارِ بِهِمْ مِنَ المَدِينةِ لِـدُخُولِ مَكَّـةَ، وخَرَجَ مَعَـهُ عَمُّـهُ العَبَّـاسُ وَأَبْنَـاءُ أَعْمَـامِـهِ الأَقْرَبينَ. وَوَلَّى عَلَى مَكَّة عَتَّابَ بنَ أَسِيدٍ أميراً. وسارَ باتِّجاهِ الشَّرْقِ مُوَلِّيـاً وَجْهَهُ نحـو هَوَازِنَ التي اجْتَمَعَتْ وَثَقِيفُ وَمَنْ مَعَهُما مِنَ الجُمُوعِ.

رَابَطَ أَعْدَاءُ اللَّهِ في وَادٍ من الأَوْدِيَةِ الضَّيِّقَةِ مُخْتَفِينَ في شِعَابِهِ، ومُتَخَفِّينَ في ثَنِيَّاتِهِ، مُسْتَعِدِّينَ للانْقِضَاضِ في كُلِّ لَحْـظَةٍ، مُنْتَظِرِينَ وُصُـولَ المُسْلِمِينَ لِمُبَـاغَتَتِهِمْ، والـوُثُـوبِ عَلَيْهِمْ عَلَى حِينِ غِرَّةٍ.

سَارَ الجَيْشُ الإسْلامِيُّ جَرَّاراً، وَمَا يُهْزَمُ جَيْشٌ مِثْلُهُ مِنْ قِلَّةٍ، وَظَنَّ الَّـذِينَ أَسْلَمُوا حَـدِيثاً أَنَّـهُ لا غَـالِبَ لَهُمْ، وَقَـدْ

أَعْجَبَتْهُمْ كَثْرَتُهُمْ، وغَرَّتْهُمْ أَعْدَادُهُمْ، وَٱسْتَقْبَلُوا وَادِيَ حُنَيْنٍ، وَٱنْحَدَرُوا في وَادٍ مِنْ أَوْدِيَةِ تِهامَةَ، وَبَيْنَما هُمْ كَذَلِكَ يَسِيرونَ لا يَخْطُرُ على بَالِهِمْ خاطِرٌ إِذَا بِكَتَائِبِ أَعْدَاءِ اللَّهِ قَدْ شَدَّتْ عَلَيْهِمْ شَدَّةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَٱنْشَمَرَ المُسْلِمُونَ رَاجِعِينَ لا يَلْوُونَ على أَحَدٍ وَحَمَلَتِ الإِبِلُ بَعْضُها على بَعْضٍ. ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ في مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾.

ٱنْحَازَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ذَاتَ اليَمِينِ، وَلَمْ يَبْقَ مَعَهُ إِلَّا نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ مِنَ المُهَاجِرِينَ والأَنْصَارِ، وَجَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، مِنْهُمُ الفَضْلُ بنُ العَبّاسِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما، فقد ثَبَتَ ثَباتاً كأَنَّما غُرِزَتْ رِجْلاهُ في الأَرْضِ، وَصُلِبَ جِسْمُهُ في الهَوَاءِ، فكانَ كالصَّخْرَةِ التي لا تَتَحَرَّكُ يُدَافِعُ وَيُقاتِلُ، وَرَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «أنا رَسُولُ اللَّهِ... أنا مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ اللَّهِ... أَينَ أَيُّها النَّاسُ؟» فلمْ يَلْوِ النَّاسُ على شَيْءٍ، وَالعَبَّاسُ آخِذٌ بِزِمامِ بَغْلَةِ رسولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وابْنُهُ الفَضْلُ يُقاتِلُ وَيُدَافِعُ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، : «يَا عَبَّاسُ، آصْرُخْ، يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، يـا مَعْشَرَ أَصْحَـابِ السَّمُرَةِ»، فأَجابوا: لَبَّيْكَ، لَبَّيْك، إلاَّ أَنَّ الرَّجُلَ يُحاوِلُ أَنْ يَثْنِيَ بَعِيرَهُ فَلاَ يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ، فَيَأْخُذُ دِرْعَهُ فَيَقْذِفُها في عُنُقِهِ، وَيَأْخُذُ سَيْفَهُ وتُرْسَهُ، وَيَقْتَحِمُ عَنْ بَعِيرِهِ وَيُخَلِّي سَبِيلَهُ، وَيَؤُمُّ الصَّوْتَ حَتَّى يَنْتَهِيَ إلى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

حَتَّى إذا آجْتَمَعَ إليهِ مِنْهُمْ مِائةٌ آسْتَقْبَلُوا النَّاسَ فَآقْتَتَلُوا، وَكَانَتِ الدَّعْوَةُ أَولَ ما كانتْ: يا لَلأَنْصَارِ، ثُمَّ خَلَصَتْ أَخيراً: يا لَلْخَزْرَجِ ، وكَانُوا صُبْراً عِنْدَ الحَرْبِ، فَأَشْرَفَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في رَكَائِبِهِ فَنَظَرَ إلى مُجْتَلَدِ القَوْمِ وَهُمْ يَجْتَلِدُونَ، فقالَ: «الآنَ حَمِيَ الوَطِيسُ».

وَبَـدَأَ الفَضْلُ بنُ العَبَّـاسِ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما، يَصُـولُ وَيَجُولُ، يُقَاتِـلُ ذاتَ اليَمِينَ وَيَنْثَنِي ذَاتَ الشِّمَالِ يَـرُدُّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيُقَـاتِلُ دُونَـهُ، وَآنْهَزَمَ المُشْـرِكُونَ بِـإِذْنِ اللَّهِ: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَـهُ على رَسُولِـهِ وَعَلَى المُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَـرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الكَافِرِينَ﴾.

وَلَمَّا رُدَّ الْمُشْرِكُونَ آنْهَزَمُوا إلى الطَّائِفِ وتَحَصَّنُوا بِهَا، فَتَبِعَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَحَاصَرَهُمْ، ثُمَّ صَالَحَ أَهْلَ الطَّائِفِ.

وَعَادَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِالمُسْلِمِينَ إلى الجِعْرَانَةِ فَوَزَّعَ أَمْوَالَ هَوازِنَ، وَمَنَّ عَلَيْهِمْ بِنِسَائِهِمْ وَذَرَارِيهِمْ، وَأَعْطَى المُؤلَّفَةَ قُلُوبُهُمْ، ثُمَّ سَارَ إلى مَكَّة، وَآعْتَمَرَ مِنْ الجِعْرَانَةِ. وَبَقِيَ مُدَّةً في مَكَّةَ ثُمَّ خَرَجَ مِنها إلى المَدِينَةِ، وخَلَّفَ عَتَّابَ بنَ أَسِيدٍ أميراً على مَكَّةَ ومَعَهُ مُعَاذُ بنُ جَبَلٍ يُفَقِّهُ النَّاسَ في أُمُور دِينِهِمْ.

وَرَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إلى المَدِينَةِ، وَآسْتَقْبَلَهُ أَهْلُهَا فَرِحِينَ، إِذْ عَادَ إِلَيْهِمْ نَبِيُّهُمُ الكَرِيمُ الذي يَنْعَمُونَ بِقُرْبِهِ حَيْثُ يُرْشِدُهُمْ إلى الخَيْرِ وَيدُلُّهُمْ على الطَّرِيقِ القَوِيم. أَمَّا الفَضْلُ بنُ العَبَّاسِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما، فَقَدْ وَجَدَ في نَفْسِهِ المُسْلِمَ الجَدِيدَ الذي لا يَزَالُ بِحَاجَةٍ إلى أَنْ يَبْقَى بجانِبِ ابنِ عَمِّهِ يَأْخُذُ منهُ ما فَاتَهُ، وَيُعَوِّضُ ما مَضَى، لِذا حَاوَلَ أَنْ يَبْقَى أَكْثَرَ وَقْتِهِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَسْتَفِيدُ منه.

كُنِّيَ الفَضْلُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَبا العَبَّاسِ ، كَما كُنِّيَ أبا عَبْدِاللَّهِ، وَفي المَدِينَةِ وَلِشِدَّةِ حِرْصِهِ أَنْ يَبْقى بِجَانِبِ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ لِيَحْصَل عَلَى الذي فَاتَهُ، لِذا فَقَدْ أُطْلِقَ عَلَيْهِ أَبُو مُحَمَّدٍ.

شَعَرَ الفَضْلُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ دُونَ المُسْلِمينَ السَّابِقِينَ لِذَا كَانَ صَامِتاً أَمَامَ الأَوَائِلِ يَسْتَمِعُ مِنْهُمْ، وَصَامِتاً أَمَامَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَتَلَقَّى مِنْهُ، وَيُنَفِّذُ مَا يُطْلَبُ مِنْهُ، يُحَاوِلُ أَنْ يَشْتَرِكَ في كُلِّ سَرِيَّةٍ يُرْسِلُها نَبِيُّ اللَّهِ لِيَحْصَلَ عَلَى الأَجْرِ مِمَّا قَدْ سَلَفَ، أو يَرْبَحَ الرِّبْحَ الكَبِيرَ بِنَوَالِهِ الشَّهَادَةَ.

وَحَجَّ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في السَّنَةِ العَاشِرَةِ «حَجَّةَ الوَدَاعِ» فَأَرْدَفَ ابنَ عَمِّهِ الفَضْلَ وَرَاءَهُ، وَكَانَ خَلْفَهُ في الطَّرِيقِ، وفي المَنَاسِكِ. حَتَّى عُرِفَ بـ (رِدْفِ رَسُولِ اللَّهِ).

عادَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْ مَكَّةَ إِلَى المَدِينَةِ، وَكَانَتْ سَرَايَا المُسْلِمِينَ تَنْطَلِقُ إِلى جِهَاتٍ كَثِيرَةٍ. وَيَحْرِصُ الفَضْلُ على التَّطَوُّعِ في صُفُوفِ المُجَاهِدِينَ.

فَلَمْ يَلْبَثْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنِ ٱنْتَقَلَ إلى الرَّفِيقِ الأَعْلَى فَجُهِّزَ، وَنَزَلَ في قَبْرِهِ لِدَفْنِهِ الفَضْلُ، وقُثَمُ ابنا عَمِّهِ العبَّاسِ، وابنُ عَمِّهِ الآخَرُ عَليُّ بنُ أَبي طَالِبٍ، وَمَوْلاَهُ شُقْرانُ.

وَٱنْطَلَقَتْ جُيُوشُ الفَتْحِ بَعْدَ حُرُوبِ الرِّدَّةِ نَحْوَ الشَّامِ، وَنَحْوَ العِرَاقِ، وَسَارَ الفَضْلُ نَحْوَ الشَّامِ وَلَمْ يَعُدْ يُفَضِّلُ البَقَاءَ في المَدِينَةِ فقَدِ ٱرْتَحلَ حَبِيبُهُ عَنْهَا، وَٱلْتَحَقَ بالرَّفِيقِ الأَعْلَى.

خَاضَ الفَضْلُ كُلَّ المَعَارِكِ التي وَقَعَتْ في بِلادِ الشَّامِ قَبْلَ ٱرْتِحَالِهِ عَنِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَأَبْلَى فِيها كُلِّها البَلاءَ الحَسَنَ، وما خَرَجَ مِنْ مَعْرَكَةٍ إلاَّ وَقَدْ أُثْخِنَ بالجِرَاحِ حَتَّى يُظَنَّ أَنَّهُ قَدِ آسْتُشْهِدَ، لِذَا فَإِنَّ هناكَ رِوَايَاتٍ كَثِيرَةً عَنِ آسْتِشْهَادِهِ في كُلِّ مَعْرَكَةٍ خَاضَها.

لَقَدِ آشْتَرَكَ في مَعَارِكِ أَجْنَادين، وَفَحْلٍ، واليَرْمُوكِ، وكانَتِ الأَبْطَالُ تَتَحَاشَاهُ، وتَفِرُّ مِنْ أَمَامِهِ، ويَخْتَرِقُ صُفُوفَ الأَعْدَاءِ، وَيَتْرُكُ وَرَاءَهُ طَرِيقاً مَفْتُوحَةً في صُفُوفِ الرُّومِ مَلِيئَةً بالجُثَثِ، وَكَمْ قِيلَ لَهُ: ٱرْفِقْ بِنَفْسِكَ.

وَيَشْعُرُ الفَضْلُ دَائماً أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ السَّابِقِينَ إلى الإِسْلاَمِ

الَّـذِينَ شَهِـدُوا بَـدْراً وَالمَشَـاهِـدَ الأُولى مَـعَ رَسُـولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِذَا عَلَيْهِ أَنْ يَظْفَرَ بِالشَّهَـادَةِ فَيَسْعَى لها، وإِنْ لَمْ تُكْتَبْ فَقَدْ نَالَ الأَجْرَ ـ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ـ بِمَا سَعَى.

وَفي السَّنَـةِ الثَّامِنَـةَ عَشْـرَةَ أَصَـابَ المُسْلِمِينَ طَـاعُـونُ «عَمْـوَاسٍ»[1]، وَكَـانَ مِنْ ضَحَـايَـاهُ عَـدَدٌ غَيْـرُ قَلِيـلٍ مِنَ المُسْلِمِينَ وَرِجَـالاتِهِمْ وَمِنْهُمْ: أَبُـو عُبَيْـدَةَ بنُ الجـراحِ، وَشُـرَحْبِيلُ بنُ حَسَنَـةَ، وَيزيـدُ بنُ أَبي سُفْيَـانَ، والفَضْـلُ بنُ العبَّاسِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم، جميعاً.

ٱبْتَسَمَتْ شَفَتَا الفَضْلِ رَاضِياً بما قَدَّمَ مِنْ أَعْمَالٍ، وَمَا قَامَ بِهِ مِنْ أَعْمَالِ الجِهَادِ، ثُمَّ أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ، وَفَاضَتْ رُوحُهُ الكَرِيمَةُ إلى بَارِئِها، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَرْضَاهُ.

لَمْ يُنْجِبِ الفَضْلُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَوْلاداً ذُكُوراً، لِذَا فَقَد ٱنْقَطَعَ عِقْبُهُ، وَتَرَكَ بِنْتاً وَاحِدَةً، هِيَ أُمُّ كُلْثُـومٍ، وَأُمُّها صَفِيَّةُ بِنْتُ مَحْمِيَّةَ مِنْ سَعْدِ العَشِيرَةِ.

تَزَوَّجَ الحَسَنُ بنُ عَليٍّ أُمَّ كُلْثُومٍ بِنْتَ الفَضْلِ ثُمَّ فَارَقَها فَتَزَوَّجَها أَبُو مُوسَى الأَشْعَرِيُّ.

---

(١) عَمْـوَاس: بلدةٌ بفلسطين على مَقْـرُبَةٍ من القُـدسِ وإلى الغرب منها. وكانَ أولَ ما ظهرَ الطاعونُ فيها لذا نُسِبَ إليها.